٣٠٤ اميل دوركهايم (١٨٥٨ - ١٩١٧)

يعتبر اميل دوركهايم من اهم واشهر علماء الاجتماع الفرنسيين وذلك لما وهبه من افكار ونظريات اجتماعية علمية وما نشره من ابحاث ومؤلفات ودراسات قيمه في حقول الاجتماع والفلسفة والتربية استطاعت ان تؤثر فيما بعد على افكار وطروحات عدد كبير من علماء الاجتماع الفرنسيين والاوربيين على حد سواء. ويمكن اعتبار العالم دوركهايم من اقطاب المدرسة الاجتماعية الفرنسية التي كانت لا تثق بالدراسات والابحاث الفردية التي اجراها علماء النفس وتشك في صحتها نظرا لعدم مقدرتها على دراسة وفهم طبيعة الفرد فهما حقيقيا طالما انها لا تنتهج الطرق الموضوعية في الدراسة والتحليل ولا تستطيع الدخول الى عقل الفرد الباطني من اجل كشف حقيقته وتعرية أسراره وخفاياه. (١٧٠) استطاع دوركهايم تكملة دراساته الاولية والعليا في المعاهد والجامعات الفرنسية ، وبعد نجاحه في نيل الشهرة العلمية عين بروفسورا لمادة علم اجتماع التربية في جامعة السوربون واشغل هذا الكرسي حتى وفاته في عام ١٩١٧ . وخلال عمله العلمي استطاع دوركهايم تأليف عدة كتب اشهرها كتاب « احكام الطريقة الاجتماعية » وكتاب «الاشكال البدائية للحياة الدينية » وكتاب « علم الاجتماع والفلسفة » وكتاب «الانتحار» .

تأثر دوركهايم بتعاليم وكتابات المفكر كونت فمنه استعار عدة مفاهيم ومصطلحات اجتماعية استطاع تطويرها واعتمادها في نظريته الاجتماعية الجمعية . ومن اهم هذه المفاهيم مفهوم الوضعية(Positivism)ومفهوم الاجتماعية (Sociologism) لكن الفرق بين الاتجاهات والميول الفكرية التي كان يحملها كل من كونت ودوركهايم هو أن كونت ركز اهتماماته على مشكلات التغير والداينميكية الاجتماعية في حين ركز دوركهايم على دراسة المشكلات السكونية للبناء الاجتماعي والسيطرة الاجتماعية . وعلم الاجتماع بالنسبة لدوركهايم هو ذلك العلم الذي يهتم بدراسة وفهم وتحليل الظواهر الاجتماعية .(١٧١) ووظيفة العالم الاجتماعي تتجسد في تشخيص وفرز الحقائق والتفاعلات الاجتماعية التي

---

(١٧٠) الخشاب، مصطفى (الدكتور)، علم الاجتماع ومدارسه، الكتاب الاول، ص ٣٠٠ - ٣٠١.

(١٧١) نفس المصدر السابق، ص ٢٣٧.

تكمن في العلوم الاجتماعية التي تتخصص في دراسة وفهم جوانب الحياة المختلفة كالجوانب الاقتصادية والدينية والاسرية والثقافية والتربوية والسياسية ...الخ. اراد دوركهايم ان يحول علم الاجتماع من موضوع ادبي فلسفي الى موضوع وصفي وعلمي . ومحاولته هذه الزمته الى اقتفاء منهجية وضعية تعالج الحقائق الاجتماعية وكانها اشياء خارجية تقيد سلوكية وعلاقات الافراد ، وان الافراد لا حول ولا قوة لهم في تبديل أو تحوير الحقائق والظواهر الاجتماعية هذه كاللغة والدين والزواج والعادات والتقاليد الاجتماعية وهكذا .[١٧٢] فالفرد منذ ولادته كما يخبرنا دوركهايم يجد نفسه محاطا باحكام وقوانين اجتماعية قسرية لا يستطيع تغييرها او التقليل من اهميتها كما لا يستطيع انتقادها أو التهجم عليها او التهرب منها . والشيء الوحيد الذي يستطيع الفرد القيام به هو اطاعة هذه القوانين والاستسلام الى اوامرها ونصوصها دون اي تردد او تأخر والا لايمكن ان يكون الفرد مقبولا من لدن الجماعة ومنطويا تحت لوائها .

ويضيف دوركهايم قائلا بان الفرد يكتسب لغته ودينه وعاداته وتقاليده ومقاييسه وطموحاته من الجماعة او الجماعات التي يحتك فيها ويتعامل معها . واكتسابه لهذه الظواهر والتجارب الاجتماعية يكون من خلال عمليات التنشئة الاجتماعية التي يتلقاها من العائلة والمدرسة والمجتمع المحلي . ومصادر التنشئة الاجتماعية هذه تصب في عروقه اخلاقية وقيم ومقاييس ومثل المجتمع بحيث تتجسد عنده شخصية المجتمع الكبير ويكون ممثلا له تمثيلا حقيقيا.[١٧٣] اذن يعمل المجتمع من خلال جماعاته المرجعية (Reference Groups) على صب السمات الاساسية للشخصية النموذجية في عروق الفرد منذ الصغر بحيث ينشأ الفرد وهو يحمل الشخصية النموذجية لمجتمعه . ومثل هذه الآراء تعني بان الفرد يذوب وسط الجماعة والمجتمع المحلي بحيث لا يستطيع التأثير فيهما ابدا. والفرد حسب تعاليم دوركهايم لا يمكن دراسته دراسة موضوعية وتحليلية طالما انه يحمل مزايا

---

(١٧٢) Durkheim, E.The Rules of Sociological Method, The Free Prees, 1950, P.57.

(١٧٣) الحسن، احسان محمد (الدكتور)، قراءات في علم الاجتماع الحديث، بغداد، مطبعة الحرية، ١٩٦٨، ص ٦٤.

وصفات المجتمع ، فلغته ودينه وافكاره وقيمه ما هي بالحقيقة الا لغة ودين وافكار المجتمع. لذا ينبغي علينا دراسة المجتمع وعدم دراسة الفرد ولما كان علم الاجتماع هو علم دراسة المجتمع وعلم النفس هو علم دراسة الفرد فأن علم الاجتماع هو العلم الذي يجب ان يضطلع بدراسة المجتمع والجماعة ووحدتها التكوينية. اما علم النفس فليس له مكانا بين العلوم الانسانية والطبيعية ، لذا يجب الغائه وتعويضه بعلم الاجتماع الذي يدرس المجتمع وعناصره التكوينية وادواره الوظيفية. ان مثل هذه الافكار التي يحملها دوركهايم جعلته ينكر وجود علم النفس وينفي وظائفه واغراضه .

ويعتقد دوركهايم بان الحقائق الاجتماعية لا يمكن تفسيرها الا بالحقائق الاجتماعية التي تعززها وتكتمل معها . كما لا يمكن اختزال الحقائق الاجتماعية بالظواهر النفسية والسيكولوجية ابدا بل العكس هو الصحيح. فظاهرة الانتحار مثلا لا يمكن تفسيرها بعوامل نفسية بحتة كتعرض الفرد الى التوتر والقلق والخوف ...الخ. بل يمكن تفسيرها بعوامل اجتماعية شاخصة كفشل الفرد في الدراسة او السياسة او الحب او تعرض جماعته الى كارثة او ازمة تحز في نفسه او انعزاله عن المجتمع لسبب من الاسباب او تبدل اساليب المعيشة وقيم الحياة ...الخ . جميع هذه الاسباب او بعضها تدفع الفرد الى انهاء حياته بنفسه. (١٧٤) كما ان الزواج كظاهرة اجتماعية لا يمكن تفسير وجوده بعوامل نفسية كالعاطفة والرغبة والارادة ...الخ. بل يمكن تفسيره وتعليل وجوده بعوامل اجتماعية بحتة كتوليد العلاقات الاجتماعية الصميمة مع الجنس الآخر والحفاظ على الجنس البشري من الانقراض وزيادة حجم السكان والتعاون والتآزر بين البشر وتكوين الاسرة التي تعتبر اساس الاستقرار والهدوء والطمأنينة ...الخ.وتكامل الحقائق والظواهر الاجتماعية يدلل تكامل المؤسسات البنيوية ، اذ يشير دوركهايم الى ان المؤسسات تكمل بعضها بعضا واي تغيير يطرأ على احدها لابد ان يؤثر على بقية المؤسسات وبالنهاية يحدث مايسمى بالتغيير الاجتماعي (Social Change)

---

(١٧٤) Martindale, D.The Nature and Types of Sociological Theory, PP. 102 – 103.

اما نظرية دوركهايم حول التغير الاجتماعي وتصنيف المجتمعات فانها تأخذ بعين الاعتبار العامل الاساسي الذي يكمن خلف حركة التغير والمراحل الحضارية التاريخية التي تمر بها المجتمعات البشرية . فالمجتمعات برأي دوركهايم تتحول من مجتمعات ميكانيكية الى مجتمعات عضوية (١٧٥). والمجتمعات الميكانيكية (Mechanical Societies) تتميز بصفات تختلف عن تلك التي تميز المجتمعات العضوية (Organic Societies). وفي تصنيف المجتمع يعتمد دوركهايم على عامل تقسيم العمل والتخصص فيه. فالمجتمع الميكانيكي هو المجتمع البسيط الذي لا يعتمد على نظام التخصص في العمل بينما المجتمع العضوي هو المجتمع المعقد والمشعب والمجتمع الذي يعتمد على تقسيم العمل ومفهوم التعاقد. وهنا يدخل دوركهايم الى دراسة العامل المسؤول عن عملية التغير. التغير من المجتمع الميكانيكي الى المجتمع العضوي يعتمد على زيادة معدلات السكان بالنسبة لمساحة الارض وكميات الموارد الطبيعية . والزيادة السكانية تفرض على السكان التخصص في العمل وعندما يتحول المجتمع من مجتمع غير متخصص في العمل الى مجتمع متخصص فان التماسك الاجتماعي فيه يتحول من نمط التماسك الميكانيكي الى نمط التماسك العضوي .

بعد هذه الحقائق التي يزودنا بها دوركهايم عن تصنيف وتحول المجتمعات يقوم بتحديد السمات التي تميز المجتمعات الميكانيكية والمجتمعات العضوية اذ يقول بان المجتمعات الميكانيكية هي المجتمعات الصغيرة الحجم والمجتمعات البسيطة التي لا تعتمد على تقسيم العمل. وهذا معناه بان مستوياتها الانتاجية والمادية واطئة ودرجة تقدمها العلمي والتكنولوجي مختلفة ، والعلاقات الاجتماعية فيها قوية ومتماسكة ووسائل ضبطها الاجتماعي تتمحور حول العادات والتقاليد والاديان والاعراف والعاطفة والانفعال ،وروح المودة والشفقة مسيطرة على عقول ابنائها . اما المجتمعات العضوية فهي المجتمعات المتشعبة التي تعتمد على مبدأ تقسيم العمل الاجتماعي وهذه المجتمعات تتمتع بمستوى انتاجي ومعاشي عال ، وتكون فيها مهن الزراعة والصناعة والتجارة متطورة

---

(175) Ibid., P. 100.

اما درجة تقدمها العلمي والتكنولوجي فتتميز بالنضوج والفاعلية. ووسائل الضبط الاجتماعي التي تتبناها تحدد بالشرائح والقوانين والرأي العام وقوات الشرطة والأمن. ويكون المجتمع العضوي مجتمعا تعاقديا عقلانياً وبعيدا عن العاطفة والانفعال اذ تسود العلاقات الاجتماعية الرسمية وتضمحل الروح الجماعية والعشائرية. ويعطي الفرد حريات العمل والتفكير واتخاذ القرار بما يتلاءم مع مصالحه واهدافه.

وبصدد دراسة الهبات الفكرية والعلمية التي قدمها دوركهايم لعلم الاجتماع ينبغي علينا توضيح وتحليل اهم بحث قام به الا وهو الانتحار. فدراسته للانتحار كانت توضح منهجيته العلمية الاجتماعية التي اعتمدها في دراسة الظواهر الاجتماعية ومشكلاتها وتشير الى عقم علم النفس الفردي او علم النفس الطبي في تفسير الظاهرة وملابساتها كما تعرف الدراسة مفهوم الانتحار (Suicide)وتصنف انواعه وتحلل عوامله السببية على نحو من العلمية والموضوعية .

ظهرت دراسة دوركهايم عن موضوع الانتحار في كتابه الموسوم «الانتحار»الذي نشره في عام ١٨٩٧ والذي ترجم الى اللغة الانكليزية في عام ١٩٥٢. وقد بدأ دوركهايم دراسته هذه بقوله ان الحقائق الاجتماعية يجب النظر اليها ودراستها كظواهر خارجة عن اطار ومحيط ومقاصد وميول واتجاهات الفرد. وان النظم الاجتماعية كالعائلة والزواج والدين والمؤسسات الثقافية والتربوية والعادات والتقاليد هي قوى اجتماعية تعلو على الفرد وتقيد حرياته الشخصية وقواه التفكيرية والادراكية .[١٧٦] وعلم الاجتماع ينبغي ان يكون موضوعا علميا يهتم فقط بدراسة الحقائق والادلة الموضوعية كما هي ويبتعد عن الاهواء والنزعات والمقاصد الذاتية التي تفسد درجة صدق وثبات الحقائق الاجتماعية. والانتحار هو ظاهرة اجتماعية يجب ان يهتم بدراستها العالم الاجتماعي وليس المحلل النفسائي او المختص بالامراض الفيزيولوجية لانها اقرب الى اختصاصه طالما انها تتعلق بالمحيط الذي يعيش فيه الفرد ويتعامل معه. وبالرغم من ان عملية الانتحار هي عملية شخصية بحتة الا انها لا تخرج عن نطاق المجتمع الذي يعيش فيه الشخص المنتحر اذ ان القوى الاجتماعية المحيطة بالفرد وليس حالته النفسية هي التي تدفعه الى قتل ذاته.

---

(١٧٦) الحسن، احسان محمد (الدكتور)، علم الاجتماع، دراسة نظامية، ص ٣٨٤.

يقول دوركهايم بان لكل مجتمع ميل او اتجاه جمعي يدفع بعض افراده الى الانتحار وهذا الميل او الاتجاه يعبر عنه بواسطة معدلات الانتحار في المجتمع والتي لاتتغير الابتغيير طبيعة وظروف المجتمع. ويضيف دوركهايم قائلا بان التناقضات والاخطاء التي قد تسيطر على البناء الاجتماعي لابد ان تكون عاملا من عوامل تفاقم مشكلة الانتحار. فكلما كان الافراد منسجمين مع المجتمع ومتكيفين لعاداته وتقاليده وظروفه وملابساته كلما تنخفض نسبة الانتحار فيه والعكس بالعكس اذا كان الافراد غير متكيفين مع المجتمع ويعانون من مشكلات عدم التكامل وعدم الانسجام. لهذا السبب نرى بان نسب الانتحار عالية في المجتمعات الصناعية المعقدة وواطئة في المجتمعات الزراعية البسيطة التي تتكون من جماعات تربط افرادها علاقات ايجابية وصميمية. لهذا يشير دوركهايم الى ان نسب الانتحار تكون عالية في المدن ومنخفضة في القرى والارياف وتكون عالية بين العزاب وواطئة بين المتزوجين خصوصا هؤلاء الذين لديهم اطفال. وتكون عالية بين المسيحين البروتستانت ومنخفضة بين اليهود والمسلمين. واخيرا تكون نسب الانتحار بين العسكريين اعلى من نسب الانتحار بين المدنيين.

ويقوم دوركهايم بتمييز ثلاثة انواع من الانتحار، وهذا التميز يعتمد على طبيعة اختلاف التوازن الذي يطرأعلى العلاقة بين الفرد والمجتمع، وانواع الانتحار الثلاثة التي يدرسها دوركهايم

١. انتحار الوحدانية او العزلة الاجتماعية (Egoistic Suicide)

يظهر هذا النوع من الانتحار كنتيجة لانعزال الفرد عن المجتمع لسبب يتعلق بالفرد او يتعلق بالمجتمع. فالفرد لايستطيع تكوين علاقة طبيعية مع المجتمع لعدم تذوقه لقوانين وعادات وتقاليدالمجتمع وسخطه على نظامه ووضعه العام . والمجتمع من جانبه لايعطي المجال للفرد بالتفاعل معه والانتماء الى مؤسساته البنيوية نظرا لتناقض ميوله واتجاهاته ومصالحه واهدافه وقيمه مع تلك التي يتمسك ويؤمن بها الفرد، لذا يشعر الفرد بالبعد والاغتراب عن المجتمع. وهنا يفقد اماله وطموحه ويضيع كل شيء له علاقة بالمجتمع ويفشل في تذوق ثمرة عمله وجهوده، لذا تنعدم عنده معاني الحياة السامية ويفقد مقاييسه ومثله

وفيه، بعد ذلك يصاب بمرض نفسي خطير قد يؤدي به الى الانتحار. وهذا النمط من الانتحار دائما مايصيب الاشخاص المعدمين والمحرومين والذين يعانون من الامراض النفسية والعقلية.

٢. انتحار التضحية في سبيل الآخرين (Altruistic Suicide)

يعتبر انتحار التضحية في سبيل الآخرين مناقضا من حيث اسبابه ودوافعه عن انتحار الوحدانية او العزلة الاجتماعية. فهو ناتج من شدة تماسك وانسجام الفرد مع جماعته وقوة علاقته الاجتماعية معها. ذلك ان جماعته كما يعتقد لها اهميتها وفاعليتها في وجوده وكيانه فهو لايستطيع العيش دون وجودها ويكون معتمدا عليها ومتأثرا بتعاليمها وفلسفتها واساليبها السلوكية كما يكون مستعدا للتضحية بماله ونفسه من اجل بقائها واستمرارها اذا تعرضت للخطر والتهديد. وعندما تتعرض الجماعة هذه لخطر العدوان او التفكك فانه يقوم بالدفاع عنها بكل مايملك من قوة وبأس وفي احيان كثيرة ينتهج الصيغ الانتحارية لانقاذها من مأزق التشت والانقراض. واذا فشل في انقاذ الجماعة من الخطر فانه يقدم على الانتحار علما منه بانه لايستطيع العيش بدونها ولايريد مشاهدة وضعها البائس والمشتت بعد فشلها في درء الاخطار والتهديدات. ومالعمليات الانتحارية التي قام بها الضباط الطيارون اليابانيون ضد قوى الحلفاء ابان الحرب العالمية الثانية الامثال حي لهذا النوع من الانتحار.

٣. انتحار التفسخ الاجتماعي (Anomic Suicide)

يظهر هذا النوع من الانتحار عندما يفشل المجتمع في السيطرة على سلوك وعلاقات افراده وعندما تتفسخ الاخلاق والآداب والقيم وتضعف العادات والتقاليد وتعم الفوضى والفساد في ربوع المجتمع. وهنا يفقد الفرد امانه وطموحاته وتضعف او تنعدم عنده الرغبة في التفاعل مع الآخرين والانسجام معهم. وعندما يشعر الفرد بعدم قدرته على وضع حد لهذه الحالة المتفسخة والشاذة وعدم تغيير المجتمع نحو الاحسن فانه يصاب باليأس والقنوط وانعدام الآمال والاهداف. ومثل هذه الحالة تلحق به المرض النفسي والكآبة والإشمئزاز من الحياة، وجميع هذه العوامل قد تقوده الى قتل نفسه والتخلص من الحياة

(١٧٧) اذن التفسخ الاجتماعي (Anomie) الذي يعبر عن نفسه في ارتباك موازين الحياة واضطراب قيمها ومقاييسها وتشتت آمال واهداف الفرد وتناقض مصالح الفرد مع مصالح المجتمع لابد أن يدفع عددا غير قليل من ابناء المجتمع الى الانتحار، والافراد الذين يتعرضون لهذا النمط من الانتحار هم المطلقون والمطلقات والمسنون والمسنات الذين يعتقدون بقيم ومقاييس ومثل معينة اكتسبوها من وسط المجتمع الذي عاشوا فيه وتفاعلوا معه. وعندما تغير هذا المجتمع وتغيرت معه القيم والمقاييس والمثل لم يستطع الافراد المسنون تغيير قيمهم ومثلهم القديمة وادخال القيم والمثل الجديدة التي دخلت المجتمع مؤخرا. وهنا يتعرض هؤلاء الى عدم التكيف والانسجام مع المجتمع الجديد، فيفقدوا طموحاتهم واهدافهم ويصبحوا من نقاد المجتمع والثائرين عليه. وعندما يفشلوا في تغييره او اصلاحه فانهم يصابون بخيبة الامل واليأس. ومثل هذه الحالة المأساوية قد تدفعهم الى الانتحار للتخلص من الحياة ومنغصاتها.

---

(١٧٧) نفس المصدر السابق، ص ٣٨٦.